قراءة في ومضتي "سوق" و"بض" لحيدر صديق

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

حيدر صديق كاتب سوداني مبدع يشق طريقة في عالم الإبداع بخطوات واثقة ومتأنية ويضع نصب عينيه جوهر الفن وجودة النص وصدق تعبيره عن الحدث السردي الذي تسرده كل ومضة. وسأتناول هنا ومضتين له وهما ومضتي "سوق" و"بض"، وكلتاهما مروية بضمير المتكلم الذي يجعل الراوي المحور الأساسي لسرد الحدث والتفاعل معه والتعبير بعمق عن تجليات هذا الحدث وانعكاساته على نفس الشخصية ووجدانها. وسأبدأ بومضة "سوق" وها هو نصها:

سوق

تمعّنتُ في اللوحات المعروضة. لوجود النسخة الأصلية في جيبي لم اشتر لوحة خيوط العنكبوت.

ومضة تلعب على الخط الفاصل والواصل بين الفن والحياة، فالشخصية هنا هاوية للفنون التشكيلية وتقف في معرض وتتفاعل مع اللوحات المعروضة ونستشف كل ذلك من الجملة الأولى للنص. أما الجملة الثانية فتبني على دلالات الجملة الأولى وتخصصها، فبدلا من

الوقوف أمام لوحات المعرض بوجه عام، تتوقف الشخصية أمام لوحة بعينها وهي اللوحة الخاصة بالعنكبوت. ويحدث تماه بين الناظر/المتأمل/الشخصية وبين ما تجسده هذه اللوحة، فالعنكبوت قاسم مشترك بينهما. وإذا كان العنكبوت يمثل اللوحة كلها، نجده مخصَّصًا بالنسبة للشخصية، ويقترن بجيبها فقط، وكأن هذا الجيب لم تدخله نقود مثلا منذ سنوات - ويؤكد ذلك فعل الشراء المزمع- الأمر الذي يجسد لنا حالة الفقر التي تعيشها الشخصية بشكل جيد.

وعلى ضوء ذلك، نعود إلى فعل الشراء لنجد أنه يمثل مفارقة لفظية، فمن الواضح أن الشخصية فقيرة ولا تستطيع شراء أي لوحة هنا، الأمر الذي يجعلنا نفسر فعل الشراء على غير لفظه، كأن يتمثل هذا الشراء في الاستهلاك الفني/التلقي، بمعنى أن الشخصية ليست في حاجة للتوقف أمام هذه اللوحة طويلا لأن العنكبوت يمثل لبنة أساسية في حياتها ولديها فائض منه ومن دلالاته، وبالتالي تستغني عن اللوحة التي تجسده.

وعندما نعود إلى عنوان الومضة نجد أنه لا يرتبط بالفنون التشكيلية بوجه خاص، وإنما يفتح مجال الومضة على باب الاستهلاك والتسوق في حياتنا اليومية، وكأن سوقنا الواقعية لا تعرض إلا آلامنا مثلا أو لا نستطيع أن نشتري منها شيئا لعجزنا المالي، أو أننا نقف

مكتوفي الأيدي والجيوب أمام ما يُعرض في السوق. وإبراز مفردة "جيبي" في نص الومضة يجعلنا نربط النص بالركود الاقتصادي أو الغلاء الفاحش لأسعار السلع وهي سلع فاقدة لقدرتها على الإشباع على أية حال لأنها تماثل ما لدى المستهلك. وربما نستشف من الومضة نظرة معينة للفن بوجه عام، وهي نظرة تقوم على ما ينقص المتلقي، لا على التعبير البديع عما لديه بالفعل. فالراوي هنا يعتر الفن مكملا لحياة المتلقي، أي أن يسبح من خلاله في عالم لا يستطيع الوصول إليه في الواقع، أو عالم لابد أن يقدم للمتلقي رؤية جديدة لا تماثل الرؤية المتحققة لديه بالفعل أو التي يعرفها تمام المعرفة.

وننتقل الآن إلى الومضة الثانية لحيدر صديق وهي ومضة "بضُ" وليست لها علاقة بالفنون التشكيلية، فهي ومضة تقف أمام لحظة مرتقبة أو مشتهاة في حياة شخصية الراوي الذي يسرد حدث الومضة بضمير المتكلم. ها هو نص الومضة:

بضُ

التقيتُ ناثرة الفرح في دنياي بعد زمان طال. فتحتُ قلبي وعكستُ ترتيب نُدُوبه.

هذه الومضة تسلط الضوء على لحظة زمنية تأتي بعد زمن ممتد من افتقاد/غياب الفرح/ناثرة الفرح. وربما كان اللقاء عابرا أو لا سبيل إلى الالتقاء المتعمد بناثرة الفرح، فاللقاء يتم عندما تمر بالراوي هذه الناثرة للفرح دون جهد منه أو أن سعيه وراء الفرح لا يمكنه أن يكلل بالنجاح إلا إذا مرت هذه الناثرة في طريقه. والراوي لا يتكلم هنا عن ناثرة الفرح بوجه عام وإنما يخصصها بقرنها بعبارة "في دنياي"، أي أن الفرح خاص به هو، الأمر الذي يدل على أنه كان محروما من الفرح طوال ذلك الزمن الطويل. والاتيان بصفة تلك المرأة أو البدل عنها – "ناثرة الفرح" – يؤكد على دورها في حياته وعلى حاجته الماسة إلى الصفة المقترنة بها. ولكنها "ناثرة" فقط، بمعنى أنها تتوقف عند نثر الفرح ولا تتابع اكتماله أو نموه. ولذلك نستحضر كل دلالات فعل النثر عند قراءتنا للومضة. النثر يقترن بالتفرق والبعثرة كنثر الحَّبِّ ونثر الشجرة لثمارها كما تفعل شجرة التوت مثلا، كما يقترن النثر بمجرد البداية الواعدة دون متابعة نتائج فعل النثر، مثلما ننثر الحبوب في الحقل في بداية الزراعة أو ننثر الحبوب في مكان ما كي تلتقطها العصافير دون أن يشمل ذلك التأكد من نمو البذور/الحبوب أو من قيام العصافير بالتقاط هذه الحبوب.

وعندما ننتقل إلى الجملة الثانية والأخيرة من الومضة، نجد أنها تبني على دلالات الجملة الأولى، فها هو الراوي يستعد لاستقبال حبوب الفرح المنثورة بأن يفتح قلبه لالتقاط هذه الحبوب. ولكننا نفاجأ بأنه يعكس ترتيب ندوب قلبه، وكأن قلبه كله عبارة عن ندوب، ومن الواضح أنها ندوب ناتجة عن غياب الفرح في حياته لفترة طويلة من الزمن. وفكرة عكس ترتيب الندوب فكرة رمزية قد يقف القارئ حائرا أمامها. وأظن أن عكس الترتيب هنا يوحي بأن الراوي يريد للندوب التي تشكلت في بداية غياب ناثرة الفرح – وهي ندوب أقدم على مستوى الزمن – أن تأتي في البداية كي تمتلئ بحبوب الفرح التي تنثرها هذه المرأة. وإذا تلاشت هذه الندوب وحل محلها الفرح يمكن للندوب اللاحقة – التي ربما كانت مبنية عليها أو ناتجة عنها – أن تمتلئ بالفرح تلقائيا.